في خدمة تلاميذه..

«وكـم في حـضارتنا مـن صـور رائعـة يرتفـع فيهـا المخلصون المتواضعون إلىٰ درجة ملائكية مع علمهم وفضلهم وقدرتهم علىٰ أن يكونوا في أرغد عيش وأرفع مكانة»

لم يكن مولانا ممن يستنكف عن زيارة أحد مهما صغر شأنه أو رقَّ حالُه، فكثيرًا ما كان يخصُّ تلاميذه بزيارات عائلية يصحب زوجته وبعض أهله، فمرة في دمياط عند محمد الحداد، ومرة في المنوفية عند الدكتور صبري أبو حسين، وأخرىٰ عند الدكتور ياسر غريب في الشرقية، بل كان يُدعىٰ إلىٰ زيارة في الإسكندرية أو المنيا أو الأقصر، فيُلبِّي طائعًا، ويرىٰ في ذلك تعظيما لشأن تلاميذه ورفعًا من شأنهم.

***

في عام 2002..

وفي ليلة بتنا سويًا في منزله بوادي حوف بضاحية حلوان،

كأن الوحي يتنزل علىٰ مولانا، فلا يكاد ينام حتىٰ يستيقظ..

نادىٰ: يا أستاذ وليد

في سكرات النوم.. كنت.

تظاهرت بالاستغراق، فربما كفَّ عن النداء..

من المؤكد سيطلب مني ضبط المنبه لصلاة الفجر.. لقد فعلت ذلك.

أو يطلب أن أُذكِّره بأمر ما في الغَد، فليكن ذلك في الصباح،

أعاد مولانا الكرَّة ونادىٰ.. ما أبعد اليأس عنه.

- نعم يا أستاذنا؟ .. قلتها متثائبًا

- بقولك يا أخي، بص في الشقة كدة كويس وتعالىٰ

- نعم، أبص في الشقة؟! علىٰ إيه؟!

- بص فيها كلها..

- علىٰ إيه بس يا دكتور

- بص عليها بس، (لم يكن ليدلي بتصريحات أخرىٰ)

جعلت أَدُورُ في الشقة ولا أدري عن أي شيء أبحث.. قلت في نفسي: ليتني بِتُّ في مدينة نصر بدلا من هذا العناء.

- أيوه يا أخي

- نعم؟!

- بصيت عليها كويس؟

- آه تمام، مفيش حاجة

- مفيش حاجة إيه؟ عاجباك؟!

- جدا جدا ربنا يوسع عليك

- خلاص خدها إيجار

- إيجار؟! ليه؟

- هديهالك بـ 200 جنيه بس، خدها اتجوز فيها.

- بس يا أستاذنا أنا عملي في مدينة نصر، وما بين الشقة والعمل بعد المشرقين.

- بس شاور نفسك كده ورد عليَّ.

- إن شاء الله بس أنام الأول

- نام يا سيدي واشبع نوم.. خد الباب في إيدك.

لم يكن باستطاعتي أن أقبل عرض مولانا لبعد المسافة كما قلت، ولم أكن قد عثرت علىٰ عروس حتىٰ اللحظة.

مرت الأيام، وتعاقبت السنوات واتصل بي مولانا يطلب حضوري علىٰ عَجَل.

ذهبت إليه في مدينة نصر، وما إن دخلت حتىٰ وجدته متأهبًا للخروج ومعه الصديق عبد الباسط الحَسَني المحامي.. طلب مني المكوث في البيت حتىٰ يعود.. سألته: إلىٰ أين؟! لم يكن ليجيب علىٰ مثل هذه الأسئلة..

وحدي جلست.. كانت زوجته الحاجة نشوة في زيارة لأهلها بالمنيل

مرت ساعات قليلة قبل أن يحضرا

فوجئت بمولانا يقول لي:

- بكره تجيب عشرة آلاف جنيه وتيجي في الصباح

تحت أمر حضرتك بس ما مش معايا المبلغ ده كله.. ممكن أتصرف لحضرتك

هنا ابتسم عبدالباسط وقال: الدكتور اشترىٰ شقتين هنا في مدينة نصر، وعايز يأجر لك شقة

- بس يا أستاذنا..

- لا بس ولا ما بسش.. خلاص.. بكره تجيب الفلوس ونكتب العقد.

في اليوم التالي أحضرت المبلغ، كان ابن شقيقته الأستاذ حسن عبد العزيز موجودًا.. فشهد علىٰ العقد

إيجار عشر سنوات..

وبدأت رحلة تشطيب الشقة التي لم تسكنها زوجتي حتىٰ الآن.. رغم مرور أربع سنوات كاملة.

***

علم مرة بنشوب بعض الخلافات بين أحد تلاميذه وزوجته، فما كان منه إلا أن سارع بسيارته يخترق الفيافي، ويقطع المسافات حتىٰ وصل إلىٰ منزلهما، وكان تدخله حاسمًا فأشعَر الزوجة بخطئها، ورفع من شأن الزوج الذي كان يفتقد إلىٰ الثقة بنفسه.

من عادته أن يقول لأحد تلاميذه: كيف حال زوجتك وأولادك؟! ولا أقول لك، اتصل لي بها..

ويدور الحديث علىٰ هذا النحو:

- السلام عليكم.. أنا اسمي عبد الحليم عويس

- .....

- أخونا ده عامل إيه معاكِ؟

- .....

– طيب.. خدي تليفوناتي معاكِ.. ولو زعلك في حاجة كلميني.

كثيرا ما كان يتلقىٰ المظالم من الأزواج والزوجات علىٰ حد سواء.. ويرىٰ أن ذلك أفضل من شكوىٰ المرأة لأهلها.. فكم من زيجة انفرط عقدها بسبب رعونة الأهل وتعنتهم.

***

زارني مولانا في بلدتنا مرات عدة، كانت الأولىٰ سنة 2002 تقريبًا، واصطحب فيها زوجته وولدهما أنس وزوجته وولده، وتوالت الزيارات مع زوجته الثانية وابنة خاله التي تزوج منها بعد وفاة الأولىٰ.

أذكر يوم زارنا ومعه زوجته الثانية الحاجة (نشوىٰ) والصديق (رضا الميداني)، فقد جاء وليس في نيته المبيت، تناولنا الغداء وجلسنا طويلا، ثم بدا له أن يبيت ليلته عندنا، أرسلني إلىٰ زوجته بالداخل لأخبرها بعزمه المبيت.

عبثًا حاولَتْ السيدة إقناعه بالعودة.. ولكن ذلك لم يكن مجديًا مع ديكتاتوريته المحببة.. فقد قرر المبيت عندنا.. شرف لنا ما بعده شرف.

مرةً.. اتصل ثاني أيام العيد ليخبرني بزيارته لنا ووصوله بعد نصف ساعة علىٰ الأكثر، وهو ما جعلنا نعلن حالة الطوارئ، فلا صبر لمولانا علىٰ طهي الطعام، فرغم كونه غير أكول إلا أنه كان كثير الحفاوة بالطعام، ولَكَم قرَّع المضيف لتأخر الطعام أو لتقديمه باردًا..

وباردًا هنا يعني أن الطعام دون درجة الغليان.

همّتَ زوجتي ومعها والدتي بطهي الطعام للدكتور ومن معه، ورنَّ الهاتف.. وكانت المفاجأة!

لقد أتىٰ مولانا ومعه جيش عرمرم من الضيفان، كانوا أكثر من عشرة أفراد!

رحبنا بهم.. لم تكن هناك مشكلة مع وجود لحوم الأضحية.. ومن ثَمَّ عادت زوجتي لتزيد كمية طعامه بما يتناسب مع هذا العدد..

أما عن عزومات مولانا فحدث ولا حرج، ولو أطعناه في ولائمه لأقمنا بأولادنا في بيته لا نبرحه.. وكان صديقنا محمد الحداد أكثرنا حظًا من هذه الولائم.. وأحيانًا يذهب وزوجته مضطرين إلىٰ تلبية دعوة أستاذنا، وسرعان ما اعتادا الأكل بالإكراه.

وحدث أن ألحَّ عليَّ مرة في إحضار والدي ووالدتي وزوجتي وصغاري لزيارته مهددًا بأنه لن يدخل لنا بيتًا، ولن يأكل لنا طعامًا، ما لم نحضر إليه جميعنا.. فاستأذنتُه أن يكون ذلك في المحلة الكبرىٰ؛ باعتبارها الأقرب إلىٰ البحيرة حيث يقيم الأهل، فاستجاب علىٰ الفور.. ولقينا من الحفاوة والترحاب ما لقينا اللهم إلا من عصبيته الزائدة بسبب تحركات ولدي خالد الضارّة التي قلبت كيان المنزل رأسًا علىٰ عقب.

ولم يقتصر أمر المظالم علىٰ تلاميذه من المصريين، وإنما تعدىٰ إلىٰ تلاميذه من القيرغيز والأوزبك والكازاك والأتراك والمغاربة والبنغال والأفارقة.. كان جامعة إسلامية بما تحمله الكلمة من معنىٰ، لقد نجح في وراثة فكرة جمال الدين الأفغاني وتنفيذها واقعًا ملموسًا.

ويقتضي المقام هنا أن أختم بقصة تكشف عن معدن الرجل، بل عن جواهره وجوهره، فمن عجائب صنائعه أن (أصحاب علي) صاحب القصة الطريفة التي ذكرتها من قبل- أنهىٰ دراسته بمصر وهمَّ بالعودة إلىٰ بلاده، فعرض عليه مولانا أن يبقىٰ معه حتىٰ يستكمل الماجستير والدكتوراه، غير أن ظروف الطالب منعته لارتباطات في بلده، فتكفَّل مولانا بنفقات سفره وجهَّزه بجهازه وبعض الهدايا لأهله هناك.. كان الوداع حارًا.. فقد عاش حينًا من الدهر في خدمته.

وصل (أصحاب علي) إلىٰ بلاده، لكن مولانا ظلَّ مشغولا به.. فهذا خريج جديد يعاني كغيره من البطالة.. ولذا اتصل به ليسأله عن أفضل المشروعات التي يمكنه عملها في بلده، فدهش الولد، وسرعان ما أخبره أن أفضل هذه المشروعات هي تربية الأبقار.. فسأله عن ثمن البقرة فأخبره أن ثمنها يتراوح بين ألف إلىٰ ألف ومائتي دولار.. وعلىٰ الفور صدرت التعليمات لمدير أعماله الصديق (محمد الحداد) بإرسال خمسة آلاف دولار لـ(أصحاب علي).

***

لم تقتصر دائرة اهتمامه علىٰ تلاميذه فقط، إنما تعدىٰ هذا الاهتمام ليشمل آخرين، فاعتدت مثلا أن يسألني عن زملائي بالرابطة: أحمد سليمان، ياسر عدوي، وعن الصديق المبدع محمد الدويك الذي كان يصُفَّ له كتبه ويُجهزها فنيًا..

بل الأعجب من هذا!

طلب مني أن آتيه بنجار يصلح له بعض الأشياء، هاتفت صديقي

اللغوي محمد القرشي، فأرسل أخاه الأكبر (أحمد)، فاحتفىٰ به مولانا احتفاءً عجيبًا علىٰ طريقته..

تناول أحمد الطعام مع مولانا بالأمر، وعلىٰ مائدة واحدة..

ولما حانت ساعة المحاسبة، أعطاه مولانا ضعف ما طلب.

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد

لقد ظل يسألني عن الرجل ويرسل إليه سلاماته.

***

يوم أن أراد بيع سيارته ماركة **Daewoo** عرض عليَّ أخذها بسعر مخفض، والسعر المخفض لدىٰ مولانا أن يأخذ ربع المبلغ مثلا، وكلما جئته بقسط من المال يؤخره شهرًا بعد شهر، ثم يُصدر فرمانًا بإسقاط الديون المستحقة عليك.

اعتذرت له عن قبول العرض، وقلت له: أنت أعلم بموقفي من قيادة السيارات، وهذا أمر لا أصلح له، ولا يصلح لي.

اتصل بأحد معارفه، كان شابا أربعينيًا، جاء الرجل مهرولا:

- كم تساوي هذه السيارة؟

- تقريبا خمسين ألف جنيه يا دكتور

- هي لك بأربعين

- لكن يا أستاذنا خمسين سعر كويس وأنا كده الكسبان

- خلاص.. أنا قلت أربعين يبقىٰ أربعين، ولو زودت في الكلام- والله- هخليها بتلاتين.

انصرف الرجل، ثم عاد بعدها ومعه المبلغ، وكانت المفاجأة!

لقد جاء ومعه خمسون ألفًا!!

استشاط مولانا غضبًا وعنَّفه قائلا: إحنا اتفقنا علىٰ أربعين يبقىٰ تجيب أربعين بس.

اعتذر الرجل، وسرعان ما انصرف قبل أن يُعاقب بشراء السيارة بثلاثين ألفًا!

هكذا عاش طائيًا سخيًا كريمًا...

القَطِيعَتَان!

«والعفو لا يكون عفوًا إلا عن قوة، والزهد لا يكون زهدًا إلا عن غنىٰ، والإنسانية لا تكون إلا مع الحق والعدل»

العلاقة بمولانا دائمًا علىٰ ما يُرام، أرىٰ فيه العالم العامل الذي لا يكتفي بتعلم العلم وتعليمه، بل يُقدِّم ترجمة عملية علىٰ أرض الواقع، غير أن ديكتاتوريته لم تكن تروق لي أحيانًا، وكثيرًا ما كنتُ أقولُ: إن استبدادك يفوق استبداد أنظمتنا السياسية، وهذا مثال حيٌ علىٰ أن الاستبداد فطري في مجتمعاتنا المريضة!

علىٰ أن موقفين حدثا أدَّيا إلىٰ شبه قطيعة لم تتعدَ في كل مرة عدة أيام، فأما الأولىٰ فقد أرسلني ذات يوم ببعض الأوراق إلىٰ أحد رموز الصوفية المعروفين بكثرة المريدين والأتباع، واستقبلني الرجل بحفاوة وترحاب بالغين، فلم أجد بُدًا من إخراج كتابين كلاهما لي: أحدهما مشترك مع مولانا، والآخر من تقديمه، فأهديتهما إليه، فقلَّبهما عن اليمين والشمائل باهتمام بالغ ولم يُخف إعجابه.

ويبدو أن الرجل قد دار برأسه أو تخيل أن يستعين بي في إنجاز بعض كتبه ودراساته، هكذا فهمتُ بعدما ألمح إلىٰ ذلك إلماحًا..

تغافلتُ عن الرد والتعليق كأني لم أفهم مراده، مضت ساعة يتعرَّف فيها عليَّ، ويعرفني بنفسه ونتحدث في بعض الأمور، ثم استأذنته في الانصراف.